تعريب العلوم الانسانية في التعليم الجامعي

دراسة تحليلية لأبعادها ومراحلها من المنطلق إلى التنسيق إلى التوحيد

للدكتور رشدي فكار

تمهيد : التعريب قضية مصيرية بالنسبة لعالمنا العربي وليست هامشية :

غنى عن التعريف اننا نعيش في عصر تحدد فيه معايير تقدم الامم بقدر ما لديها من عطاء علمي ، ومعرفة تكنولوجية ، وتبني لخصائص الارتقاء ، دون ان تفقد ذاتيتها واصالتها ، ولقد استطاعت بعض المجتمعات ان تتصدر حاليا ، لمجرد انها تملك وسائل التقدم هذه ؛ اي الارتكاز اساسا على العلم ، والتكنولوجيا ، والصناعة ، دون ان تكون لها ثروات طبيعية او بشرية؛ بينما عالمنا العربي وقد حباه الله بالثورات الطبيعية والبشرية ، وخصه بذاتية انسانية ، اثمرت حضارتها على الارض عبر قرون طوال ، متوعك في خطواته الوظيفية وفي تبني معايير التقدم ، فهو يواجه حاليا من بين ما يواجه من مشاكل وظيفية قضية الاولويات بمعنى كيفية تصنيف اشكالياته بين اساسية حيوية بها يبدأ ، وثانوية غير فورية تتحمل الانتظار ولا تتعقد مع الزمن .

ولا شك ان اشكالية التعريب في محيط العلوم ، والتربية ، والثقافة بصفة عامة في تصورنا تتصدر من بين الاشكاليات الاساسية الحيوية الفورية لعالمنا العربي ، باعتبار ان عوامل الاعاقة لا تتجسد بالضرورة في عدم عطاء طبيعة ارضه او مقومات حضارته او ذاتية البشرية ، بقدر ما تتجسد في توعكه حيال امتلاك وسائل تقدم العصر لا اسسه وجوهره لانه مالك لها ؛ ونعني بالوسائل فاعلية العلوم وتوظيفها بتحديد مضامينها ، واكتساب المعرفة التكنولوجية وتطبيقها ، بعد استئناسها في شكل فوري قادر على استغلال خيرات الطبيعة ، وتفجير طاقات عطاء الانسان لا سلبياته وهذا لا يتاتى الا بفضل استيعاب موضوعي لقدرات العلوم وواقع التكنولوجيا في هذا العصر نظريا ، وعمليا ، وتطبيقيا .

ولا جدال ان الخطوات التي قطعت في طريق التعريب تبشر بالخير ، فبعد الاجيال السابقة التي ادت دورها في حدود متطلباتها التي املتها الضرورة وبجهد فردي ، جاءت انشطة المؤسسات الثقافية والاكاديمية لتؤهل لارضية التعريب التي تحمل مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي ، رغم امكاناته المحدودة مسؤولياتها بتنسيقها ومنهجتها لتعطي باكورة العمل الجاد في اطار علوم الطبيعة في شكل المعجم الاول الموحد . وهذا بدوره يدعو الى المزيد من تكثيف المجهودات الواعية المتبصرة بعمق في قضية التعريب انطلاقا من الشعور بالمسؤولية لدى كل مثقف عربي امام هذه القضية المصيرية .

والتزاما منا بهذا المبدأ نقدم ، من خلال هذا العرض المركز ، تصورنا على ضوء تجربتنا الجامعية ، وخبرتنا المتواضعة في علوم الانسان ، لاشكالية التعريب في هذه العلوم ، مبتدئين بطرح الاشكالية وابعادها لننتقل الى تحديد مراحلها المختلفة من مرحلة المنطلق بمعطياتها ومجازفاتها التي املتها الضرورة ، ما لها وما

عليها ، الى مرحلة التنسيق المنهجي وكيفية التغلب على العوائق على ضوء الامكانات الميسرة الى مرحلة التوحيد كهدف حتمي منشود للنهوض بأمتنا وتحقيق تقدمها باستعادة مجدها التليد علميا .

المبحث الاول

طرح اشكالية تعريب مصطلحات علوم الانسان من خلال ابعادها المختلفة

منطلق الاشكالية فرضته الضرورة واملته الحاجة :

اذ من المعروف انه مع ظهور المجلات الثقافية في العالم العربي منذ القرن الماضي والتطلع الى الفكر الغربي ومحاولة التعرف على بعض مظاهره ، ثم مع تأسيس الجامعات العربية ، والرغبة في تبني المعطيات الاكاديمية المعاصرة في الجامعات الغربية ، بدأت بعض هذه المعطيات فلسفية ، وعلمية ، وتكنولوجية تأخذ طريقها الى ثقافتنا العربية ، سواء في شكل مصطلحات معربة او مترجمة ، او في شكل مضامين تأثر بها المثقفون . وكما كان الحال في تجربة سابقة عرفتها امتنا من قبل حين الاحتكاك بفكر أجنبي تمثل في الحضارة الاغريقية وما حولها ، فقد تباينت المواقف في المحيط الفكري على مستوى الشكل والمضمون ، بين متحمس متقبل لها قلبا وقالبا ، وبين رافض لها شكلا ومضمونا ، وبين موفق بين القبول والرفض ، متقبل للشكل قائل بالمواءمة مع المضمون الحضاري العربي المسلم ، او متقبل للمضمون الاغريقي قائل بشكلية المواءمة على مستوى القوالب والصياغة العربية الاسلامية .

غير أنه يلاحظ في تجربتنا التاريخية مع الحضارة الاغريقية وما حولها أنها جاءت في وقت كان جسد الامة العربية الاسلامية في قمة اشعاعه وعطائه فاستأنس الاحتكاك وروضه ليخضعه للمضامين الاسلامية تفنيدا او تعزيزا ولم نجد في المحيط الفكري آنذاك مزيفا او متنكرا لحضارته الاسلامية العربية ، وانما كانت الاشكالية منصبة على مستوى اوليات النهج بين الالتزام والمرونة ، بين الوحي وقداسته والعقل والاحتكام اليه في اطار التكامل والعطاء . فلم تحل المضامين الاغريقية محل المضامين الاسلامية ، ولم تصبح المصطلحات الاغريقية وسيلة لتحريف لغتنا العملاقة وتهرها .

وكان ما كان من مواجهات رصينة في مشرق امتنا العباسي ومغرب امتنا الاندلسي ، وخرجت حضارتنا من التجربة (من الغزالي الى ابن رشد) من الالتزام الى مرونة الاحتكام العقلي ، محصنة مشرقة معطاءة غزت بعبقريتها وفاعليتها جذور حضارة الغرب التي تعيش اليوم ، والتي جاءت الينا تعيد كرة الفكر الاغريقي ، مع الفارق بين الامس واليوم ، فأمتنا حاليا تعيش التجربة وجسدها مسخن بالجراح من ضربات كيلت لها ذات اليمين وذات اليسار ، ومع هذا عليها ان تخوض مواجهة الاحتكاك بالفكر الاجنبي متجاوزة لجروحها ومتكسبة لوظائف حضارة العصر . دون ان تنتقل اليها جراثيم تقيح جروحها هذه ، وتعقد لها فوريه الالتئام .

فمواجهة اليوم اذن لا تختلف عن مواجهة الامس الا في مدى قدرة جسد امتنا على تكيف الاحتكاك لصالحه ، ولما فيه تدعيم لذاتيته وأصالته . لا اهتزازها او اذابتها ، لان منطلق التجربة المعاصرة في مرحلتها الاولى منذ مشارف القرن الماضي ، رغم ما قدم من ايجابيات نجده في محيط التعريب قد تحكمت فيه العفوية وأملت عليه الضرورة سلوكا جزافيا ارتجاليا لم يخضع لتقنين التخصص والاختصاص ، ولم يميز بين التعريب ومضمونه ، ولا بين ايجابياته وسلبياته في النهاية ، وهذا ما سوف نجمله في المبحث التالي من هذا العرض .

المبحث الثاني

مرحلة المنطلق للتعريب المعاصر

ما لها وما عليها

ارتكزت مرحلة منطلق الاحتكاك بالفكر الاجنبي المعاصر منذ بدايتها على الجهد الفردي ، والعمل الشخصي ، والاجتهاد العفوي ، ولم يك منتظرا منها اكثر من ذلك (اذا ما استثنينا التجربة الجادة في الترجمة لرفاعة الطحطاوي في مصر عبر القرن الماضي كما اشرنا الى ذلك تفصيلا في مؤلفنا عن **اصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربي** المنشور في باريس بالفرنسية) اذا ما وضعت في اطارها التاريخي ، حيث الاستعمار جاثم على جسد امتنا في مشرقها ومغربها ، ولم يترك لها امكانات التنفس الا بحسبان ، حرصا على مصالحه واستمرارية استغلاله ، فما وصل الينا من جهد في ميدان المجلات الثقافية العربية التي اهتمت بالفكر الغربي منذ القرن الماضي ، او ما تم في الجامعات العربية بعد تأسيسها يبرز لنا مدى تحكم الضرورة ، في تعريب المصطلحات شكلا ومضمونا ، باعتبار ان المصطلحات هي مفاتيح الفكر ومعالمه .

فرأينا في محيط الفكر العربي الحديث ما عاشته امتنا من قبل حين مواجهة الفكر الاجنبي ، بين متحمس له ومتبنى دون تبصر ، وبين رافض له ملتزم بأرضيته الحضارية العربية الاسلامية لا تزمتا ولكن خشية من مقنعات الاستعمار الرابط على ارضه وخلفياته ، فعداء الاستعمار بالنسبة للاتجاه الرافض كل لا يتجزأ وبين اتجاه ثالث توالد بعد ذلك على ضوء الاتجاهين السابقين رغم مرونته فهو ملتزم بجوهر حضارته ، ولكنه متفتح على حضارة الآخرين . وتاريخنا الفكري الحديث يعطي لنا الكثير حول هذا الموضوع ، غير اننا نكتفي باستنتاج المواقف لهذه الاتجاهات دون سرد لتطورها وابعادها تفصيلا .

الاتجـاه الاول : استلـب بحضـارة الغـرب واعمـت بصيـرتـه عـن واقـع ارضـه ، وتعلق بهـا تعلـق الغـريـق الـذى رأى فيهـا نجاتـه فانجذب بها بدلا من تقنينها ولم تتجاوز نظرتـه لهـا السطحيات منها ، وانعكس ذلك على اطار التعريب فجاء لديه مرتجلا يعبر عن انجذابه اكثر ما يعبر عن واقع حضارة الغرب وادى بالضرورة انجذابـه هذا بحضارة الغرب ، الى تنكره لحضارته وعدم اكتشاف عطاء لغتها وقدرتها ، فهو كمثل الذى لا أرضا قطع ولا ظهرا ابقى . سطحية وارتجال وعفوية فى تحمسه لحضارة الغرب وسطحية ايضا فى معرفته لحضارته العربية الاسلامية . ومن يطالع المجلات الثقافية والادبية العربية فى القرن الماضى يلفت نظره هذا الاتجـاه فى عفويته ، وعدم دراسته على عكس ما تم فى تجربتنـا السابقة مع الفكر الاغريقى بالنسبة للمتحمسين لهـا فلم يدفعهم تحمسهم آنذاك الى درجة الابتلاب بها ، والتنكر لاسلافهم ومقوماته الحضارية .

اما الاتجاه الملتزم الرافض لحضـارة الغـرب ، والتعامل معها ، باعتبار ان المستعمر لا يمكن معاداته وفى نفس الوقت تقبل انكاره ، فقد تحصـن ممثلـوه بحضارتهم الاسلامية العربية ولغتهم قلبـا وقالبـا ، وبالتالى لم يك لهم دور ملحوظ يذكر فى منطلق الاحتكاك بالفكر الاجنبى الحديث لرفضهم له اساسا من حيث المبـدأ .

بقى الاتجاه الثالث التوفيقى ، وقد نضج مـع تأسيس الجامعات ، وتبلور منذ مطلع هذا القـرن ، ودعمته المجامع بعد ذلك وهو يحاول التوفيق انطلاقا من المعرفة بحضارته والالتزام بها ، مع تغذيتها بما هو ايجابى فى حضارة الغرب ، ولكنه وجد صعوبة فى شق طريقه نظرا للظروف السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية بصفة عامة بل استحال عليه التحرك فوق ارض حضارية وان كانت متكاملة فى انتمائها لكن ممزقة فى ميولها يسعى الخصم جاهدا أن يعمق فرقتها فيضيف الى فرقتها السياسية فرقة ثقافية وبالتالى واجه هذا الاتجاه التعريب بقدرات مجزأة مفتتة غير متناسقة ، ومشتتة ليس فقط على مستوى الاقطار العربيـة ، متعددة بتعددها ، ولكن أيضا على مستوى القطر الواحد، وانعكست عليها تناقضات العالم العربى بدلا من ان تكون وسيلة من وسائل امتصاصها وتجاوزها .

ومن ثم ففترة المنطلق باتجاهاتها الثلاثة لم تشكل ارضية رصينة للتعريب تتطور فى صورة ايجابية ، وانما اضحت عائقا علينا ان نبذل الآن جهدا فى تجاوزه لنخلق جوا مناسبا ، وموائما لتعريب جدى منسق ، متكامل موحد ، بل اضاف الارتجال فى المنطلـق الى قضيـة التعريب فى حد ذاتها ، قضية التخلص من مجازفاته وتجاوز سلوكه المشتت المجزء المتعدد . فالناظر الى حال ما عرب خلال مرحلة المنطلق يجـد خليطا مـن مصطلحات ، ان كان بعضها يغطى شكلية التسمية فكثيرا ما تتناقض مع مضامينها ، بل نجد احيانا مصطلحا واحدا تقابله مصطلحات متعددة بقدر تعدد اقطـار العالم العربى . حتى ان بعض هذه المصطلحات فرغ مـن محتـواه .

ولقد اتجه البعض امام هذا الالتباس الى نقل المصطلح معربا ، دون التأكد من وجود مقابل عربى له ، ودون التزام بالمقاييس اللغوية فى تعريب المصطلح من حث تقبله سماعيا واخضاعه ليس فقط للمقاييس القاعدية للغة العربية ، بـل وللمقـاييس الجماليـة والايقاعية ، واكثر من هذا نجد فى بعض الاحيان نفس المصطلح يستعمل مرة معربا واخرى بمقابل ، ولقد تفشت هذه الظاهرة اخيرا ومردها دون شك قصـور المنطلق فى خلق ارضية تعريب محددة ، ومنسقـة ، وموحدة . نعطى كمثال لهذه الظاهرة : السوسيولوجيا او علم الاجتماع ، السيكولوجيـا او علـم النفس ، الانثـربـولـوجيـا او علـم الانسـان او علـم السـلالات البشـريـة ، او علم الاجناس . علـم التربية او البيدغوجيا . علم السكان او الديمغرافيا مع ان هناك تباين بالنسبة لهذا المصطلح الاخير بين النظرية العامة للسكان والديمغرافيا كدراسة لكم السكان حركيا او قاريـا .

ولقد ادت هذه الظاهرة ايضا الى التبـاس فى المضامين تحت تعدد المسميات ، واصبحت تشكل عائقا بالنسبة لعطاء العلم وفاعليته ومنهجه ووضوحـه ، فالعلم اساسا يرفع الالتباس لا يعطيه .

ومع هذا لا ننكر ان فترة الانطلاق رغم مجهوداتها الفضولية مهدت على الاقل لنا الطريق ، ولولا فضولها لتأخر التعرف على الكثير من هذه العلوم الحديثة سواء طبيعية او انسانية . ولا شك ان التعريب ، وقد تجاوز مرحلة المنطلق حاليا وتطلع الى مرحلة التنسيق سوف يشق طريقه ، من خلال مكتبه بالرباط ، وان يحصر المراحل جاهدا بفضل تعاون مختلف المؤسسات الثقافية والمجامع الاكاديمية المهتمة بهذا الموضوع . وسنحاول فى المبحث التالى طرح تصورنا لمرحلة التنسيق هذه ، على ضوء ما هو كائن مع الاشارة الى كيفية التغلب على العوائق التى ورثناها من المنطلق ، لنصل فـى النهاية الى ما يجب ان يكون ونعنى بذلك مرحلة التوحيد.

المبحث الثـالث

من مرحلة تنسيق التعريب فى العلوم الانسانية وكيفية التغلب على العوائق ، الى مرحلة التوحيد

التعرض لمرحلة تنسيـق التعـريب فى العلـوم الانسانية يلزمنا فى البداية وقبل الخوض فى تفاصيلها بابداء ملاحظتين اساسيتين : **الاولى** خاصة بتحديـد موضوعى موجز لما نعنى بالعلوم الانسانية **والثانيـة**

خاصة بوضع التعريب بين هذه العلوم ، والرياضيات والعلوم الطبيعية التجريبية ... الخ ، فبالنسبة للاولى حينما نصنف ابستمولوجيا المعارف بهدف **تقنينها** لا الاكتفاء بتنظيرها كما هو الحال فى **نظرية المعرفة** او تعليلها كما هو الحال فى **فلسفة العلوم** ملتزمين فى التقنين بمنهجيتها وتصنيفها ، نجد ان المعرفة العلمية تلتزم بتعريف التفكير الرياضى المؤدى الى اليقين على انه مسيرة استدلالية من فروض او مسلمات بديهيات وتعريفات ومصادرات (منذ اقليدس) والمنطق الصورى لارسطو الذى هو ضرب من التفكير الرياضى ايضا بقدرات مسلم بها للوصول الى نتائج بينما التجريب فى العلوم الطبيعية فى العصر الحديث تعرفه على انه دراسة انطلاقا من اساس تعميم المبادى على ظواهر بعد وصفها لتعليلها وتخريجها اعتمادا على الملاحظة المباشرة المخبرية حيث يمكن عزل الظاهرة معمليا والسيطرة عليها وقياس كم جزئياتها وبالتالى اجراء التجارب بهدف الوصول الى اكتشاف القوانين الطبيعية المسيرة لها ، وكيفية تطويرها ، واعطاء النتائج الملتزمة بحتمية هذه القوانين او تصحيحها او تخطئتها ، او تحويلها .. الخ ، ومن حيث الشرح والتحليل والتفسير يعتمد فى ذلك منهجيا كما ذكرنا على **اساس التعميم** للمبادىء مع تنوعه وتكيفه فى كل علم على حدة .

اما بالنسبة للظواهر التى لا يمكن عزلها معمليا والسيطرة عليها فى المخبر كالظواهر الانسانية حيث تحكم الصفات الذاتية ايضا او الثانوية كالقيم الاخلاقية والجمالية والوجدانية والمشاعر والروحانية فيلجأ فيها الى تعدد الملاحظة ابتداء من الملاحظة غير المباشرة كالملاحظة الوثائقية (نسبة الى وثائق) والتاريخية والاحصائية والمقارنة .. كذلك يمكن استئناس الملاحظة المباشرة التجريبية فى بعض مناحيها « كسيكولوجية الطفل مثلا ، وما يمكن توفر شروط التجريب فيه واكتشاف الصفات الاولية الثابتة الموضوعية له وينصب الهدف اساسا لا على اكتشاف قوانين (كما زعم البعض) على الاقل فى المرحلة الحالية من هذا القرن ، وانما اكتشاف العوامل المهيئة للسببية بفضل التكرار والانتظام بين عوامل اساسية وثانوية ويلعب الاحصاء حاليا دورا هاما فى ذلك . اما من حيث الشرح والتحليل والتفسير ، فلا يعتمد كما هو الحال فى علوم الطبيعة على **اساس التعميم للمبادىء** وانما تصنف علوم الانسان بين علوم استطاعت ان تحدد لها قواعد او انسقة كما هو الحال فى العلوم اللغوية ، والعلوم الاقتصادية ، والعلوم القانونية ، اتفق عليها ويطلق عليها منهجيا **العلوم الاجتماعية الخاصة** . ويمكن ان تلحق بها الديمغرافيا ، والجغرافيا ، وكذا العلوم التاريخية (حسب التحليل الماركسى للتاريخ وربطه بانسقة تاريخية تكيفت حسب علاقات وقوى الانتاج لتحدد انماطه وتؤول به الى حتمية يمليها الصراع الطبقى حول بنية المجتمع) وان كنا شخصيا نميل مع العلامة « جورفتش » فى مناهج العلوم الى اعطاء « العلوم التاريخية » منهجا قائما بذاته فى الشرح يعتمد على تخصيص وانفرادية الاحداث والوقائع فى رصد مالا يتكرر .

ونكتفى بهذا التوضيح لنعود الى ما تبقى من تصانيف العلوم الانسانية ، ونعنى بذلك النوع الثالث باعتبار ان هناك : 1) **علوم اجتماعية خاصة** تعتمد فى الشرح على المنهج التحليلى بناء على قاعدة او نسق للاحالة ، واعطينا امثلة منها . 2) **وعلوم تاريخية** لها منهجها التخصيصى (باستثناء الاتجاه الماركسى فى شرح التاريخ) يهدف فى علم التاريخ الى تصحيح التاريخ لاثبات صحته بفضل الاحتكام لتعدد العوامل والمصادر ، وتحكيم البيئة فى تنقية وغربلة ماضى فى حاضر اصبح ماضيا بدوره . او تعليل التاريخ كما هو الحال فى فلسفة التاريخ بعد التأكد من صحة وقائعه واحداثه لا قبل ذلك (كما التبس على البعض) لانه لا يمكن فلسفة تاريخ لم تثبت صحته ، اللهم الا اذا كان الهدف فلسفة اهواء المؤرخين وتذوقاتهم وميولهم . 3) **العلوم السوسيولوجية** ونعنى بها السوسيولوجيا ونظريتها العامة نشأة وتطورا واتجاهات معاصرة ، وفروعها التخصصية العملية والميدانية كالسوسيولوجيا الاقتصادية ، والسياسية ، والحضرية ، والريفية ، والصناعية ، والدينية .. الخ . ومن حيث الشروح فى هذه العلوم السوسيولوجية هناك الاتجاه البنيوى الوظيفى الذى يعطى اهمية لفورية شبكة العلاقات الاجتماعية كفعل ورد فعل ولا يركز على الخلفيات التاريخية والمقنعات المضمرة ، والاتجاه الديالكتيكى الاستقصائى الذى يركز على التناقضات وشموليتها انطلاقا من الواقع كما هو بخلفياته ومقنعاته . اما علم النفس والانثربولوجيا وبقية العلوم البينية (بين بين) فالشروح بنيوية وظيفية او ديالكتيكية تنطلق من الانتماء للاتجاهات . وان كنا نميل الى الحاق السيكولوجيا الاجتماعية بالسوسيولوجيا فى الشروح بينما سيكولوجية الطفل نحتكم فيها للابستيمولوجيا النشوئية او التحليل لمراحل النمو النفسى ، (فرويد اويونج) .

اما موضوع هذه العلوم الانسانية فهو بدوره تتحكم فيه العلاقات والبنيات والوظائف اكثر ما تتحكم فيه قوانين طبيعية حتمية 1) الانسان وعلاقته بماضيه (التاريخ) 2) بمحيطه (الجغرافيا والايكولوجيا) 3) بالآخرين شكلا وكما (الديمغرافيا) 4) بالتقاليد والعادات والاعراف لتحقيق تجانسه (الانثربولوجيا تراثية ثقافية او اجتماعية) بخلاف الانثربولوجيا الطبيعية (التى ترتكز على التاريخ الطبيعى للانسان) 5) بوسائل التوصيل والتعبير والرموز والعلامات والاشارات (العلوم اللغوية) 6) بالضبط الاجتماعى حقوقا وواجبا ووسائل الردع (العلوم القانونية) 7) بثروته انتاجا وتبادلا واستهلاكا (العلوم الاقتصادية) 8) بالسلطة (علم السياسة) 9) باغواره وشعوره كفرد وتأثره فى

المجتمع (العلوم النفسية) 10) بالآخرين لا شكلا وكما ، وانما مضمونا وكيفا فى الاسرة والجماعة والطبقة والمجتمع من خلال كل ابعاده وتناقضاته شموليا (السوسيولوجيا وفروعها التخصيصية) حيث لا تطرح العلاقات فى اطارها النوعى وانما فى تناقضاتها الشمولية لسد قصور شروح العلوم الاجتماعية الخاصة حين تازمها ، بجانب دراسة الانسان لا كفرد فى حد ذاته وانما انطلاقا من وحدته الاجتماعية اسرية او جماعية ، او طبقية او مجتمعية ، 11) بخالقه ومصيره بهدف توافق الرؤية الدينية والعلمية لا احلال احدهما بدلا من الآخر ، العلوم الدينية فى تصورنا الاسلامى لها . اما الدين فى جوهره (الاسلام مثلا) فسوف يبقى اساسا متجاوزا لكل فلسفة وعلم اللهم الا لدى المتجاهل او الجهول .

وعلى ضوء هذه الملاحظة الاولى من خلال نظرة مركزة لمفاهيم علوم الانسان ننتقل الى الملاحظة الثانية الخاصة بوضعية التعريب بين هذه العلوم من جهة والرياضيات كالحساب والهندسة والجبر وعلوم الطبيعة التجريبية الفيزيائية والكيميائية . . . من جهة اخرى . التعريب للمصطلح كى يتم فى صورة علمية لا بد وان يهتم بفزيولوجية المصطلح اهتمامه بمرفولوجيته ، اى يهتم بوظائف المصطلح من خلال مضامينه بقدر اهتمامه بشكله وبنيته من حيث المقابلة والمعادلة . بل من الخطأ طرح المقابلات اللغوية والمعادلات جزافيا . فكل مصطلح له حياة ووظائف الى جانب بنيته ، نجدها فى الرياضيات تحددها الفروض والرموز العددية الحسابية وما ابسطها وادقها وفى العلوم الطبيعية تحددها بسهولة التجارب المخبرية او تمليها الملاحظة التى ولدتها وانشأتها من لدن الباحث ، بل ان بعض المصطلحات فى علوم الطبيعة ولدت على ضوء المضمون لا ان المضمون حدد باستعمالها كما سوف نلاحظ فى بعض مصطلحات علوم الانسان . ومن هنا كان رأينا أن التعريب فى العلوم الطبيعية اكثر بساطة لان مضامينه محددة اساسا ولا تتغير بتغير المجتمعات خصوصا ما جد فى عصور التطور العلمى الحديث واكتشافاته واختراعاته ، فلا يمكن ان يبحث عن تاريخ مجهول لمصطلح ابتكر مع ابتكار مضمونه بناء على التجربة او الاكتشاف .

اما ما سبق من مصطلحات فى علوم الطبيعة عرفتها الحضارات السابقة ، ففى هذه الحالة يحال الى اطارها التاريخى حين التحديد شكلا ومضمونا مع اضافة ما جد فيه من اجتهاد ، كمثال المصطلحات التى عرفتها حضارتنا الاسلامية العربية فى ميدان العلوم الطبيعية والكيمياء واجتهادات جابر ابن حيان ، المفروض وفاءا منا لحضارتنا ان نعيدها الى ارضيتها بمصطلحات عربية اساسا مع الاشارة الى ما حدث لها من تطوير وتطور فى الحضارة العلمية المعاصرة . اما ما جد فنكتفى بتعريبه شكلا ومضمونا ، لان البحث عن مقابل او معادل يعنى اختلاق موازى لمصطلح ، له بدوره حياته ووظائفه ، والحكم على مصطلح مبتكر بانه له مضمون تاريخى فى لغة اخرى ، وهنا نكون امام مصطلحين لا مصطلح واحد احدهما بلا ماضى لانه مبتكر والآخر بلا حاضر او مستقبل لانه يعيش التجربة التى آلت الى توليد المصطلح . وقد يبدو هذا التناقض واضحا فى المصطلحات التى تحمل اسماء مبتكريها او اسم التجربة موضع المصطلح . فكيف يوضع لهذه المصطلحات فى هذه الحالة مقابل عربى . اذن تعريب بكل بساطة شكلا ومضمونا .

وهكذا نرى ان تبسيط قضية تعريب مصطلحات الرياضيات والعلوم الطبيعية بتبنى نهج التعريب شكلا ومضمونا لما هو جديد سوف يساعد على الاتجاه بنا الى المعاصرة العلمية ولا نعيش فى زمان متراجع عن زمانه . حين نعرف مضامين تجاوزها زمانها . فمن المعروف ان العلوم الطبيعية والبحتة والرياضية بفضل التقدم فى المعرفة التكنولوجية المعاصرة تعيش فى زمن سوسيولوجى سابق لزمانه .

اما بالنسبة لقضية التعريب فى علوم الانسان او العلوم الانسانية فالوضع يختلف حيث الرابطة فى بنية المصطلح المرفولوجية تنعكس عليها وظائفه فى الحياة الانسانية والاجتماعية ولا تحددها تجربة معملية ومن ثم فكل مصطلح انسانى له صفاته الذاتية يعيش معطيات بيئته الاجتماعية ويعبر عنها قيما ، او أفكار ، او مواقفا ، او ادوارا ، بل وتنعكس عليه ايضا الخبرة الثقافية والحضارية لكل أمة فهو يجسد وجدان شعبها وعبقريته. وبالتالى تبنى المصطلحات الانسانية يطرح اول ما يطرح **مبدأ المواءمة** بين المضامين مضمون المصطلح فى لغته الام ثم كيفية خلق مضمون محدد له فى ارضيته الجديدة يعبر عن واقعها لا واقع ما نقل عنه . فتعريب مصطلحات الانسانيات خصوصا فى اهمها . العلوم التاريخية ، والسوسيولوجية ، والسياسية ، والاقتصادية والنفسية والدينية والانثربولوجية ، وحتى الفلسفة والقانون (بالنسبة لشريعتنا الاسلامية الخالدة) لا بد ان تنطلق فيه معايير تحديد المضمون من ارضيتنا بعد الاشارة فى البداية الى مضمونه فى لغته . اما اذا تبنينا مضامينه فى لغته الام فسوف يصبح وسيلة من وسائل مسخ حضارة امتنا وعطائها تحت شعار تجديدها وتحديثها .

وبالتالى مقاييس التعريب فى الرياضيات والعلوم الطبيعية غير مقياس التعريب فى علوم الانسان ، فهذا النوع الاخير لا يكفى فيه مجرد التخصص النوعى للمعرب (بكسر الراء) وانما يتطلب منه قدرة وعمقا فى تعرفه على ابعاد حضارته ولغته ، بقدر عمقه فى الحضارة واللغة المعرب عنها . الى جانب التزامه الصادق بوجدان امته ، وعقيدتها وعبقرية شعوبها ؛ والا آل التعريب الى غير ما يرجى منه ، واصبح يغطى خلفيات ومقنعات مبيتة سلفا .

اما الخطوات الموضوعية العملية للتعريب في الانسانيات تحت راية التنسيق توطئة لتوحيد المصطلحات فنحددها كما يلي :

الخطوة الاولى : تتم خلالها عملية الحصر والجدونة للمعاجم الموسوعية التي ظهرت في اللغة العربية ، خصوصا ما تبنى منها لاكثر من لغتين (اى العربية والفرنسية والانجليزية) نظرا لتفاعل العالم العربي مع الثقافتين الفرنسية والانجليزية ، ثم بعد ذلك الالمانية وغيرها ، الى جانب الاهتمام بمضامين المصطلحات اى شرح وظائفها ومعانيها لا مجرد معاجم لغوية تكتفي باعطاء المقابل ، وخلال عملية الحصر هذه تصنف هذه المعاجم الموسوعية بين ما **ينتفع به اساسا وما ينتفع به نسبيا وما يستبعد** . ثم يطبع هذا التصنيف التحليلي ليوزع على الجامعات والمؤسسات الثقافية كدليل في هذه المرحلة الوقتية في انتظار ظهور المعاجم المنسقة الموسوعية الموطئة للمعجم الموسوعي الموحد فيفروع العلوم الانسانية الاساسية بالنسبة لحضارتنا مبتدئة بالمعجم الموسوعي الموحد في العلوم الاسلامية والتاريخية ، ثم المعجم الموسوعي الموحدفي العلوم السوسيولوجية والنفسية والانثربولوجية ثم المعجم الموسوعي الموحد في العلوم القانونية والسياسية والاقتصادية ، الى جانب الفروع المكملة لهذه العلوم ولكن قبل ان نصل الى هذه المرحلة النهائية للتعريب علينا ان نمر بالخطوة الثانية والثالثة .

الخطوة الثانية : تعنى حصر وجدولة لا للمعاجم وانما للمصطلحات وهذه بدورها تصنف في قسمين من حيث المصادر ومن حيث النوعية ، اما المصادر فتصدر فيها : 1) المجامع اللغوية العربية وما اتفق عليه ، 2) تكمل بمصطلحات اكتسبت مشروعيتها من حيويتها اليومية في المعاجم الموسوعية التي وضعت كاستجابة لضرورة التعليم وفوريته من قبل القائمين على التجربة اليومية في الجامعات ودور العلم .

اما التقسيم النوعي للمصطلحات فنعنى به : 1) مصطلحات لها حياة تاريخية منبثقة من ذاتية امتنا وعبقرية تراثنا ووجدان شعوبنا ولها مضامينها التي ارتضيناها كمثال : دين ، امة ، فلسفة ، ثقافة ، تراث ، نبي ، رسول ، الحاد ، شرك ، ظلم ، حد ، الحرمات ، اخلاق ، معنويات ، نية ، وجدان . . الخ ، فمن الخطأ الانطلاق من المضمون الاجنبي وتبنيه ولكن يحدد المضمون من خلال تجربتنا الحضارية ثم يشار الى مضمونه في حضارة الغير المعاصرة ثم يعطى التخريج للمضمون وذلك في اسطر محددة . 2) اما المصطلحات الاخرى للعلوم الانسانية التي ليست لها حياة تاريخية محددة في حضارتنا وانما وليدة الاجتهادات العلمية في حضارة الغرب خصوصا في الانثربولوجيا والسيكولوجيا والسوسيولوجيا والاقتصاد فمن حيث الشكل للمصطلح من الاولى ان يبحث عن مقابله العربي واذا تعذر اشتق او عرب بكل بساطة ان كان قابل لذلك من حيث تقبله سماعيا .

اما المضمون فيحدد في البداية حسب معطياته الحضارية ثم نقوم بعملية مواءمة له مع ما يتمشى ومعطيات حضارتنا كمثال مصطلح اشتراكية ، راسمالية ، ليبرالية ، شيوعية ، ايديولوجية . . الخ ، يبدأ بتحديد مضمونه عندهم ثم تبدأ عملة المواءمة والتكيف حسب ذاتيتنا الحضارية وذلك بطرح تصورنا لمضمونه حسب قيمنا وعطاءنا ، ثم تتم عملية التخريج للمصطلح ، وذلك في اسطر معدودة ، ولقد التزمنا بذلك في **معجمنا الموسوعي العالمي للعلوم السوسيولوجية والسيكولوجية والانثربولوجية** الذي نحن بصدد اخراجه حاليا لدى « دار النشر الباريسية جتنر » .

اما الخطوة الثالثة : فهي تنطلق من وجود هذه المعاجم الموسوعية المنسقة (بكسر السين) بين العلوم الانسانية ، والمنسقة (بفتح السين) بين الاقطار العربية تسليما بمبدأ التعدد في هذه المرحلة مع الاتجاه بها الى الامتصاص والاذابة ، اى امتصاص التنوع والتعدد الموجودين حاليا ، في الاستعمال العلمي للمصطلحات ، لنخلق حدودا في البداية بين الاستعمال الاولى المباح في كل مصطلح ، وما تبنى علميا من هذا الاستعمال بمضمون معين يغطي استعمال علمي محدد ، اذ من الصعب الانطلاق مباشرة الى توحيد المصطلح دون المرور بمرحلة تنسيقية وسطية واعية بالتركة التي ورثتها ويمكن ان نسميها مرحلة المعاجم الموسوعية المنسقة (بكسر السين) لتؤهل للمعجم الموسوعي الموحد في كل مجموعة علوم بينية اساسية من المجموعات الثلاث السالفة الذكر في العلوم الانسانية ومع الاجيال القادمه يتم تعميق ما وحد على ضوء التطورات العلمية وتوالد علوم بينية جديدة . .

وكخلاصة : ان كانت هناك عوامل اعاقة ورثناها في الفترة المعاصرة فقد ورثنا ايضا حوافز الدفع والثقة عبر قرون من تاريخنا ، فعقيدتنا المشتركة لدى غالبية الامة العربية ايمانا ودينا ، ولدى الامة برمتها حضاريا ، ولغتنا العربية القادرة بما اعطت علميا ، ومعاناتنا وامجادنا التاريخية الواحدة القابعة في وجدان كل انسان منا ، تجعلنا ننظر الى غد التعريب بقدرة واصرار ولن يكون بحال اداة للتزيف والزيف ، وانما مصلا للحصانة والمقاومة في سبيل بقاء الذات وتجاوز المواجهة الحضارية لنكون في طليعتها وحملة لرايتها . غير انه لا يمكن للتعريب كما تصورناه في الصفحات السابقة ان يعزل عن بقية الاهتمامات الثقافية المكملة له والمدعمة لعطائه ونعى بذلك :

1 ـ الاهتمام بنشر امهات التحف المشكلة لثروتنا الحضارية فمنها نستقي المضامين الاصيلة واعادة ما نشر في اطار متكامل بدلا من القطع المبتورة التي لا تشكل تيارا فكريا فنحن في اشد الحاجة حاليا الى نظرة شمولية متكاملة لعطائنا الحضاري كما هو الحال في حضارة الغرب الآن ، ثم تسهيل تداول هذه التحف في طبعات ميسرة ومبسطة للشباب ، وهذا بدوره يدعونا الى اعادة

النظر فى تاريخنا ـ كما نكرر ذلك دائما ـ لانه لا يمكن استشارة تحف حضارية خالدة فى غيبة تاريخ علمى مفلسف لها ، وهذا يتطلب القيام بعمل جماعى متكامل يرصد مراحل تطور امتنا مصدرا لانجازاتها الفكرية فى تطور الانسانية حتى نعطى ثقة لبراعمنا ورجال الغد فى حضارتهم ، دون اهواء او تذوقات شخصية لكل مفكر على حدة ، من خلال خلفيات المؤرخين ونزعاتهم .

2 ـ ترجمة امهات الانتاج الانسانى العالمى الحديث والمعاصر من زاوية اختياراتنا الحضارية وما يتمشى وتدعيم تراثنا وذاتيتنا ، وذلك بتقديم النظريات العامة لحضارة اليوم الغربية وقدراتها المنهجية لا ترك الساحة الفكرية للترجمات التجارية والمبتة والموجهة بهدف سلب شبابنا من ذاتيته وتعريته من انتمائه ، وتشكيكه فى أرضيته .

وفى النهاية ان الامل الكبير لراودنا فى ان « منظمة الثقافة والتربية والعلوم » بما لها من جدارة ، وما عليها من مسؤولية ، سوف تسعى بمجهوداتها النيرة البناءة للمساهمة فى بناء الانسان العربى ثقافيا وعلميا بتوحيد معاجمه ومعرفته ، واعادة صياغة عطاء حضارته ، وتغذيته بايجابيات الفكر الانسانى المعاصر ، هذا الامل الكبير الذى يبرره ما حققت هذه المنظمة حاليا ، ومكتب تنسيقها ، من عطاء موضوعى نعتز به جميعا ، وبحثنا من جانبنا على الاسهام ، لا الوقوف فى موقف المتفرج ، فى هذا الجهد تمهيدا للطريق التى سوف تشقها أجيال الغد الصاعدة لتسير ثابتة رائدة لامتها فى كل دروب المعرفة ، ومن سار على الدرب الصحيح وصل .

دكتور رشدى فكار